

"نمو المدينة: مقدمة لمشروع بحثي"

من كتاب روبرت بارك وآخرون، المدينة (1925)
إرنست دبلو. بيرجس

ترجمة بتصرف
أ.د. مضر خليل عمر

مقدمة المحرر

بعد سنوات من كتابة كتابه الرائد ، وصف إرنست بيرجس (1886-1966) الفترة من عام 1916 إلى عام 1923 بأنها مرحلة "اكتشاف النمط المادي للمدينة" لمدرسة شيكاغو لعلم الاجتماع (1964: 6). توجه عشرات من طلاب الدراسات العليا الباحثين ، بقيادة بيرجس وزملائه ، إلى شيكاغو لإجراء دراسات حالة شاملة ومفصلة لمختلف أحياء المدينة . في محاولة للعثور على أنماط في خليط الأحياء السكنية ، استفاد بيرجس من دراسات الحالة هذه وتمارين رسم الخرائط المرتبطة بها لإنشاء نموذج حضري يعكس الفروق الاجتماعية والاقتصادية . مثل نموذج المنطقة المتحدة المركز ، الممتد من منطقة الأعمال المركزية ، درجات متزايدة من الاستيعاب الثقافي ، بالإضافة إلى مكانة اقتصادية واجتماعية أعلى مع كل منطقة سكنية متعاقبة. على الرغم من أن بورغيس اختار عنواناً فرعياً لمقالته "مقدمة لمشروع بحثي" وأقرّ بفضل في جمع البيانات المكثفة لهذه المدينة ، إلا أن نموذج المنطقة أصبح تمثيلاً مهماً وطويل الأمد لمدينة أمريكا الشمالية - لا سيما فيما يتعلق **بتربط المسافة الاجتماعية والمكانية لمختلف أفراد المجتمع** . ويؤكد أحد المؤلفين على هذا التأثير من خلال وصف نموذج المنطقة المتحدة المركز بأنه أشهر رسم بياني في العلوم الاجتماعية (مذكور في دنكان 1996: 256) . سلط فحص هذا العمل الرائد حول البنية الداخلية للمدينة الضوء على التعريفات المعاصرة للمشاكل الاجتماعية من حيث الهجرة وقضية استيعاب المهاجرين الحرجة ، بالإضافة إلى الترتيب المكاني المعمم للمدينة الصناعية في أمريكا الشمالية في أوائل القرن العشرين .

في أجندة أبحاث كلية شيكاغو لعلم الاجتماع ، أصبح الاهتمام المعاصر بالأحياء الفقيرة في وسط المدينة جزءاً من مجموعة أوسع من المخاوف بشأن تخصص المجتمع الحضري وتجزئة أفراده . جسدت شيكاغو، بتوسعها السريع وتعقيدها الاجتماعي ، العالم الحضري المجزأ ، وأصبحت النموذج الأولي للمستقبل الحضري . تساءل بيرجس : **"بأي طريقة يُدمج الأفراد في حياة المدينة ؟"** ، ثم أجاب بمناقشة حول التنظيم الاجتماعي والفوضى . وقد **قُيست قوة التغييرات الناتجة من خلال النمو والتوسع العمراني للمدن** . وعلى الرغم من استخدام مصطلحات تُشير إلى خلل اجتماعي ، إلا أن نمودجه قدّم صورةً للتحسن التدريجي والحتمي مع انتقال سكان وسط المدينة من منطقة الانتقال (المنطقة الثانية) إلى مناطق متتالية ذات ظروف بيئية أفضل . قد تحتوي أحياء وسط المدينة على مناطق بائسة ، لكنها كانت تُعد مساكن مؤقتة ، حيث شارك المهاجرون الجدد في عملية الحراك المكاني والاجتماعي .

إن الصورة التوافقية لهذا الحراك تتوافق بشكل أسهل مع استعارة "بوتقة الانصهار" في الثقافة الشعبية الأمريكية ، ربما أكثر مما تتوافق مع لغة مدرسة شيكاغو في علم البيئة الحضرية . **فقد صوّر علماء البيئة الحضرية المدينة ككائن اجتماعي يحكمه الصراع من أجل البقاء** . ومن المؤكد أن انطوت تجارب الأفراد في منطقة الانتقال على صراع . وقد غدّى ضغط المهاجرين ذوي المكانة الاجتماعية المتدنية الوافدين إلى وسط المدينة ديناميكية النموذج ، حيث وُصف هذا الضغط بأنه غزو أدى إلى موجات متتالية نحو الخارج . يفترض نموذج بيرجس للتغير البيئي والنمو الحضري أن التأثير البيئي السلبي للسكان ذوي المكانة الاجتماعية المتدنية

يؤثر على اختيار السكان الأكثر ثراءً للانتقال إلى مناطق أبعد ، بينما نشأ داخل كل منطقة فصلًا للمناطق الأصغر على أساس اللغة والثقافة والعرق . عكست هذه "المناطق الطبيعية" - التي تُقارن بالأحياء - علاقة تكافلية تتجلى في مشاعر السكان المشتركة وتقاليدهم ومصالحهم المحلية . أشار نموذج النمو الديناميكي إلى تحسنٍ في نهاية المطاف ، ومع فرض قيود على الهجرة ، احتمال تفريغ "طبيعي" من المنطقة الأولى.

بعد عام ١٩٣٠ ، أعاد بيرجس التركيز على اهتمامه المهني الأساسي بالأسرة ، وترك للآخرين مهمة انتقاد نمودجه . وقد قبل العديد من النقاد هذا التحدي . أعاد هويت صياغة النموذج السكاني بتغيير المناطق إلى قطاعات ، مجادلًا بأن رغبة الأثرياء في الحصول على منازل جديدة غدّت النمو الحضري والتنمية . لاحظ الجغرافيان هاريس وأولمان أن العقد الأخرى غير منطقة الأعمال المركزية أثرت على التنظيم الاجتماعي المكاني ، وقدموا نموذجهم متعدد النوى . واصل نموذج بورجيس للمنطقة متحدة المركز ونهجه البيئي تقديم نهج مقنع للعديد من الجغرافيين ، مستنداً جزئياً إلى وعده بقوانين عالمية قائمة على انتظامات أساسية .

وقد لاقت البيئة العاملة ، وهي تكيف الجغرافيا مع البيئة البشرية ، التي تطورت خلال ستينيات القرن الماضي كلغة علمية ، استحساناً من أتباع الثورة الكمية ، كما أتاحت أجهزة الكمبيوتر فرصة أكبر لإدارة كميات كبيرة من البيانات . ويُظهر عمل بيرري وريس (1969) حول البيئة العاملة لكلاكتا أحد الجهود المبذولة لتطبيق هذا النهج لتفسير الشكل الحضري والنمو والتغيير في العالم النامي . تُميّز هذه المقالة أيضاً علم البيئة العملي عن أشكال تحليل المناطق الاجتماعية التي سبقتها ، وذلك من خلال تحليل مجموعة كاملة من الخصائص الاجتماعية والاقتصادية والديموغرافية وغيرها ، لمعرفة الأبعاد الهيكلية الناتجة .

تتعرف الأجيال المتعاقبة من طلاب جغرافيا الحضرة على نموذج المنطقة متحدة المركز لبورجيس ، ومن خلال ذلك على أعمال مدرسة شيكاغو لعلم الاجتماع في أوائل القرن العشرين . ونتيجةً لذلك ، تُبذل جهود في هذا المجال ، مع كل عقد يمر ، للانخراط في هذا العمل . على سبيل المثال ، ناقش بيتر جاكسون (1984) البحث الإثنوغرافي المرتبط بمدرسة شيكاغو ، و"المفاهيم المحورية" للتفكك الاجتماعي والنظام الأخلاقي . و جادل بارني وارن (1990) بأنه على الرغم من النقد المُبرر لعلم البيئة الحضرية ، فإن مدرسة شيكاغو تُقدم رؤية ثاقبة حول تشكيل الجغرافيات السكنية الحضرية ، وتوصي بإعادة بناء تحليل بيئي من خلال "الارتكاز على مفهوم تقسيم العمل ... المُستتير بنظرية الهيكلية". في الأونة الأخيرة ، أطلق مايكل دير (2002) أجندة بحثية جديدة ومدرسة جديدة ، هي مدرسة لوس أنجلوس للتخطيط الحضري ، وذلك بوضعها في مقارنة مع كتاب "المدينة" . في كتابه "من شيكاغو إلى لوس أنجلوس : فهم النظرية الحضرية" (2002) ، يُعلن رسميًا عن "الصعود المُقاوم لمدرسة لوس أنجلوس" باستخدام الفصول الأصلية من كتاب "المدينة" كـ"نقاط انطلاق" . وسواءً تَقَبَّلنا هذا الكتاب أم رفضناه ، فإن هذه الإيماءات تُعرّف العمل الأدبي بأنه عمل كلاسيكي يستحق الاهتمام .

إن أبرز ما يميز المجتمع الحديث هو نمو المدن الكبرى . فلم تتجلى في أي مكان آخر التغييرات الهائلة التي أحدثتها صناعة الآلات في حياتنا الاجتماعية بمثل هذا الوضوح الذي تجلّت في المدن . ففي الولايات المتحدة ، حدث الانتقال من الحضارة الريفية إلى الحضارة الحضرية ، وإن كان قد بدأ متأخرًا عن أوروبا ، وإن لم يكن أسرع وأكمل ، فعلى الأقل بشكل أكثر منطقية في أكثر أشكاله تميزًا . جميع مظاهر الحياة الحديثة الحضرية - ناطحات السحاب ، ومترو الأنفاق ، والمتاجر الكبرى ، والصحف اليومية ، والعمل الاجتماعي - هي سمة أمريكية مميزة . أما التغييرات الأكثر دقة في حياتنا الاجتماعية ، والتي تُسمى في مظاهرها الأكثر بدائية "مشاكل اجتماعية" ، وهي مشاكل تُقلِّقنا وتُحيرنا ، مثل الطلاق ، والانحراف ،

والاضطرابات الاجتماعية، فتوجد في أشد أشكالها حدةً في أكبر مدنها الأمريك. تُقاس القوى العميقة و"الهذامة" التي أحدثت هذه التغييرات بالنمو العمراني وتوسع المدن. وهنا تكمن أهمية الإحصاءات المقارنة التي أجراها فيبير وبوشر وطلاب آخرون.

هذه الدراسات الإحصائية، على الرغم من أن المناطق الحضرية مقارنةً بالريف. فنسبة النساء إلى الرجال في المدن أكبر منها في المناطق الريفية أنها تتناول بشكل رئيسي آثار النمو الحضري، قد أبرزت... بوضوح بعض الخصائص المميزة لسك، ونسبة الشباب وكبار السن أعلى، ونسبة المولودين في الخارج أعلى، وتنوع المهن المتزايد، كلها عوامل تتزايد مع نمو المدينة وتحدث تغييراً جذرياً في بنيتها الاجتماعية. **هذه الاختلافات في التركيبة السكانية تدل على جميع التغيرات الجارية في التنظيم الاجتماعي للمجتمع.** في الواقع، هذه التغيرات جزء من نمو المدينة وتشير إلى طبيعة عمليات النمو. الجانب الوحيد للنمو الذي وصفه بوتشر وفيبير بشكل كافٍ هو عملية تجميع سكان المناطق الحضرية الواضحة نوعاً ما.

أما عملية التوسع، وهي عملية شبه واضحة، فقد تم بحثها من منظور مختلف وعملي للغاية من قبل مجموعات مهتمة بتخطيط المدن، وتقسيم المناطق، والمسوحات الإقليمية. الأمر الأكثر أهمية من تزايد كثافة سكان المناطق الحضرية هو ميلها المترابط إلى الاكتظاظ، وبالتالي إلى الامتداد على مساحات أوسع، ودمج هذه المناطق في حياة جماعية أوسع. لذلك، ستنناول هذه الورقة البحثية أولاً توسع المدينة، ثم العمليات الأقل شهرةً للتحويل الحضري والتنقل، والتي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالتوسع.

التوسع كنمو مادي

يُنظر إلى توسع المدينة، من منظور مخطط المدينة وتقسيم المناطق والمسوحات الإقليمية، بشكل شبه كامل من حيث نموها المادي. وقد تناولت دراسات الجذب تطوير النقل وعلاقته بتوزيع السكان في جميع أنحاء المدينة. حاولت المسوحات التي أجرتها شركة بيل للهاتف وغيرها من المرافق العامة التنبؤ باتجاه ومعدل نمو المدينة، وذلك لتوقع المتطلبات المستقبلية لتوسيع خدماتها. في مخطط المدينة، يُسهم موقع الحقائق والشوارع الرئيسية، وتوسيع شوارع المرور، وتوفير مركز مدني، في تحقيق التحكم المستقبلي في التطور العمراني للمدينة. وقد تجلّى ذلك في تشكيل جمعية شيكاغو للتخطيط الإقليمي، التي تُوسّع نطاق المنطقة الحضرية للمدينة إلى دائرة نصف قطرها 50 ميلاً، لتشمل مساحة 4000 ميل مربع.

ويسعى كلا الجانبين إلى قياس التوسع لمواكبة التغيرات المصاحبة لنمو المدينة. في إنجلترا، حيث يعيش أكثر من نصف السكان في مدن يبلغ عدد سكانها 100,000 نسمة فأكثر، يُعبّر سي. بي. فوسيت عن التقدير العميق لتأثير التوسع الحضري على التنظيم الاجتماعي على النحو الآتي: كان من أهم التطورات وأكثرها لفتاً للانتباه في نمو سكان المناطق الحضرية لدى الشعوب الأكثر تقدماً في العالم خلال العقود القليلة الماضية ظهور عدد من التجمعات الحضرية الضخمة، أو التجمعات الحضرية، الأكبر حجماً والأكثر عدداً بكثير من المدن الكبرى في أي عصر سابق. وقد تشكلت هذه التجمعات عادةً من خلال التوسع المتزامن لعدد من المدن المتجاورة، التي نمت باتجاه بعضها البعض حتى وصلت إلى اندماج عملي في منطقة حضرية واحدة متصلة. ما يزال كل تجمع حضري من هذا القبيل يضم داخله العديد من نوى النمو الحضري الأكثر كثافة، والتي يمثل معظمها المناطق المركزية للمدن المختلفة التي نشأت منها، وترتبط هذه البقع النووية بالمناطق الحضرية الأقل كثافة والتي بدأت كضواحي لهذه المدن. وما تزال هذه الأخيرة عادةً ما تكون أقل ازدحاماً بالمباني، وغالباً ما تحتوي على العديد من المساحات المفتوحة.

يُلفت انتباهنا الآن بقوة هذا التوسع في مساحة أكبر مدنا من خلال خطة دراسة نيويورك وضواحيها ، و تُعد هذه التجمعات الكبيرة من سكان المدن سمة جديدة في توزيع الإنسان على الأرض . يوجد في الوقت الحاضر من ثلاثين إلى أربعين منها ، تضم كل منها أكثر من مليون نسمة ، بينما لم يكن هناك قبل مائة عام فقط ، خارج المراكز السكانية الكبرى على مجاري المياه في الصين ، أكثر من اثنتين أو ثلاث . تُعد هذه التجمعات من الناس ظواهر ذات أهمية جغرافية واجتماعية كبيرة ؛ إنها تُثير مشاكل جديدة في تنظيم حياة ورفاهية سكانها وفي أنشطتهم المتنوعة . قليلٌ منها حتى الآن من طُور وعيًا اجتماعيًا يتناسب مع حجمها ، أو أدرك تمامًا وجوده كتجمعات بشرية محددة تجمعها اهتمامات ومشاعر وأفكار مشتركة . (التجمعات الحضرية البريطانية عام ١٩٢١» ، مجلة علم الاجتماع ، المجلد الرابع عشر، أبريل ١٩٢٢ : ١١١-١٢)

في أوروبا وأمريكا ، برز ميل المدن الكبرى إلى التوسع من خلال مصطلح "المنطقة الحضرية للمدينة" ، الذي يتجاوز حدودها السياسية بكثير، وفي حالة نيويورك وشيكاغو، يتجاوز حتى حدود الولاية . قد تشمل المنطقة الحضرية الأراضي الحضرية المتجاورة جغرافيًا ، لكنها تُعرّف الآن من خلال وسيلة النقل التي تُمكن رجل الأعمال من العيش في إحدى ضواحي شيكاغو والعمل فيها ، وتُمكن زوجته من التسوق في مارشال فيلدز وحضور عروض الأوبرا الكبرى في القاعة .

التوسع كعملية

لم تُجرَ حتى الآن دراسة للتوسع كعملية ، على الرغم من أن المواد اللازمة لهذه الدراسة والتلميحات حول جوانب مختلفة من العملية موجودة في تخطيط المدن ، وتقسيم المناطق ، والمسوحات الإقليمية . ربما يمكن توضيح العمليات النموذجية لتوسع المدينة على أفضل وجه من خلال سلسلة من الدوائر متحدة المركز، والتي يمكن ترقيمها كالتالي :

الشكل 1: نمو المدينة.

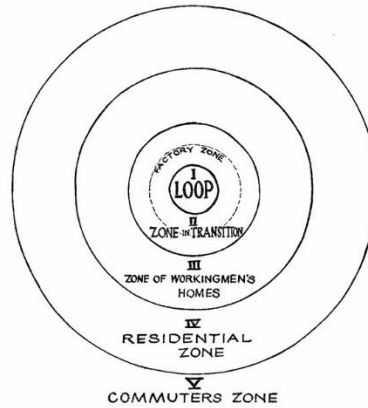


Figure 1 The growth of the city.

يمثل الشكل 1 تصورًا مثاليًا لاتجاهات أي بلدة أو مدينة للتوسع شعاعيًا من منطقة الأعمال المركزية - على خريطة "الحلقة (I)" . تحيط بمنطقة وسط المدينة عادةً منطقة انتقالية ، تغزوها الأعمال والصناعات الخفيفة (II) . منطقة ثالثة (III) يسكنها عمال الصناعات الذين فروا من منطقة التدهور (II) ولكنهم يرغبون في العيش بالقرب من عملهم . خلف هذه المنطقة تقع "المنطقة السكنية" (IV) من المباني السكنية الراقية أو الأحياء "المحدودة" الحضرية من المساكن العائلية . أبعد من ذلك ، خارج حدود المدينة ، تقع منطقة المسافرين

: المناطق الضواحي ، أو المدن التابعة ، على بُعد رحلة تتراوح بين ثلاثين وستين دقيقة من منطقة الأعمال المركزية .

يُبرز هذا الرسم البياني بوضوح الحقيقة الرئيسية للتوسع ، ألا وهي ميل كل منطقة داخلية إلى توسيع مساحتها من خلال غزو المنطقة الخارجية التالية . يمكن تسمية هذا الجانب من التوسع بالخلافة ، وهي عملية دُرست بالتفصيل في علم البيئة النباتية . إذا طُبّق هذا الرسم البياني على شيكاغو ، فإن جميع هذه المناطق الأربع كانت في تاريخها المبكر مُدرجة ضمن محيط المنطقة الداخلية ، أي منطقة الأعمال الحالية . لم تكن الحدود الحالية لمنطقة التدهور قبل سنوات عديدة هي حدود المنطقة التي يسكنها الآن أصحاب أجور مستقلون ، والتي احتوت في ذاكرة آلاف سكان شيكاغو على مساكن "أفضل العائلات" . وغني عن القول إن شيكاغو ، ولا أي مدينة أخرى ، لا تتناسب تمامًا مع هذا المخطط المثالي . وتُضاف إلى ذلك تعقيدات بسبب واجهة البحيرة ، ونهر شيكاغو ، وخطوط السكك الحديدية ، والعوامل التاريخية في موقع الصناعة ، والدرجة النسبية لمقاومة المجتمعات للغزو ، وما إلى ذلك .

إلى جانب الامتداد والخلافة ، تتضمن العملية العامة للتوسع في النمو الحضري عمليتي التركيز واللامركزية ، المتعارضتين والمتكاملتين في الوقت نفسه . في جميع المدن ، هناك ميل طبيعي لتقارب وسائل النقل المحلية والخارجية في منطقة الأعمال المركزية . في منطقة وسط المدينة في كل مدينة كبيرة ، نتوقع أن نجد المتاجر الكبرى ، ومباني المكاتب الشاهقة ، ومحطات السكك الحديدية ، والفنادق الفخمة ، والمسارح ، ومتحف الفن ، ومبنى البلدية . وبطبيعة الحال ، وبشكل شبه حتمي ، تتمركز الحياة الاقتصادية والثقافية والسياسية هنا . يمكن قياس علاقة المركزية بالعمليات الأخرى لحياة المدينة بشكل تقريبي من خلال حقيقة أن أكثر من نصف مليون شخص يدخلون ويخرجون يوميًا من "حلقة شيكاغو" .

في الآونة الأخيرة ، نشأت مراكز أعمال فرعية في المناطق النائية . لا يبدو أن هذه "الحلقات الفرعية" تمثل النهضة "المأمول" للحى السكني ، بل هي دمج لعدة مجتمعات محلية في وحدة اقتصادية أكبر . شيكاغو الأمس ، تجمع من البلدات الريفية ومستعمرات المهاجرين ، تشهد عملية إعادة تنظيم لتتحول إلى نظام مركزي لامركزي من المجتمعات المحلية التي تندمج في مناطق أعمال فرعية ، تهيمن عليها المنطقة التجارية المركزية ، بشكل واضح أو غير واضح . وتجري الآن دراسة العمليات الفعلية لما يمكن تسميته **باللامركزية المركزية** في تطوير سلسلة المتاجر ، وهو مثال واحد فقط على التغيير في أسس التنظيم الحضري والخدمات التقنية التي جعلت حياة المدينة ليست صالحة للعيش فحسب ، بل مريحة ، بل فاخرة .

ولا يمكن توفير بعض هذه الضروريات الأساسية للحياة الحضرية إلا من خلال التطور الهائل للعيش الجماعي . يعتمد ثلاثة ملايين شخص في شيكاغو على نظام مياه موحد ، وشركة غاز عملاقة ، ومحطة كهرباء ضخمة . ومع ذلك ، وكما هو الحال في معظم جوانب حياتنا الحضرية المشتركة ، يُعد هذا التعاون الاقتصادي مثالاً على التعاون دون أدنى ذرة مما يُشاع عن "روح التعاون" . فالمرافق العامة الكبرى جزء من مكننة الحياة في المدن الكبرى ، وليس لها أي معنى يُذكر للتنظيم الاجتماعي . ومع ذلك ، يُمكن دراسة عمليات التوسع ، وخاصةً معدل التوسع ، ليس فقط في النمو العمراني وتطور الأعمال ، ولكن أيضاً في التغيرات اللاحقة في التنظيم الاجتماعي وأنماط الشخصية . إلى أي مدى يُقابل نمو المدينة ، في جوانبها العمرانية والتقنية ، تكيف طبيعي وكافٍ في التنظيم الاجتماعي ؟ ما هو معدل التوسع الطبيعي بالنسبة للمدينة ، وهو معدل التوسع الذي يُمكن للتغيرات المُتحكم بها في التنظيم الاجتماعي أن تُواكبه بنجاح ؟

التنظيم الاجتماعي وتفكك التنظيم كعمليات أيضية

يتناول التوسع ، كما رأينا ، النمو العمراني للمدينة ، وامتدادها . ربما يكون من الأفضل الإجابة عن هذه الأسئلة من خلال التفكير في النمو الحضري كنتيجة للتنظيم وتفكك التنظيم ، على غرار عمليات الأيض الابتنائية والهدمية في الجسم . كيف يندمج الأفراد في حياة المدينة ؟ وبأي عملية يصبح الشخص جزءاً عضوياً من مجتمعه ؟

العملية الطبيعية لاكتساب الثقافة هي بالولادة.

يولد الشخص في عائلة متكيفة بالفعل مع بيئة اجتماعية - في هذه الحالة المدينة الحديثة . يمكن عد المعدل الطبيعي لزيادة السكان الأكثر ملاءمة للاندماج هو زيادة معدل المواليد على معدل الوفيات ، ولكن هل هذا هو المعدل الطبيعي لنمو المدينة ؟ من المؤكد أن المدن الحديثة قد ازدادت ، وما زالت تتزايد ، في عدد سكانها بمعدلات أعلى بكثير . ومع ذلك ، يمكن استخدام معدل النمو الطبيعي لقياس اضطرابات التمثيل الغذائي الناتجة عن أي زيادة مفرطة ، كتلك التي أعقبت التدفق الكبير للزنجيرون الجنوبيين إلى المدن الشمالية منذ الحرب . وبالمثل ، تُظهر جميع المدن انحرافات في تركيبها السكاني حسب العمر والجنس عن تعداد سكاني قياسي مثل السويد ، الذي لم يتأثر في السنوات الأخيرة بأي هجرة أو انتقال كبيرين . وهنا أيضاً ، تُعد الاختلافات الملحوظة ، كأى زيادة كبيرة في عدد الذكور على الإناث ، أو في عدد الإناث على الذكور ، أو في نسبة الأطفال ، أو في عدد الرجال أو النساء البالغين ، من أعراض خلل في عملية الأيض الاجتماعي عادةً ، يُمكن عد عمليتي الفوضى والتنظيم متبادلتين ، ومتعاونتين في توازن متحرك للنظام الاجتماعي نحو غاية تُعد تقدمية بشكل غامض أو قاطع . بقدر ما تشير الفوضى إلى إعادة التنظيم ويُتيح تكيّفاً أكثر كفاءة ، يجب عد الفوضى ليس مرضاً ، بل أمراً طبيعياً . الفوضى ، كمقدمة لإعادة تنظيم المواقف والسلوك ، هي غالباً ما يكون مصير الوافدين الجدد إلى المدينة ، والتخلي عن العادات ، وغالباً ما يكون التخلي عما كان له قيمة أخلاقية ، غالباً ما يكون مصحوباً بصراع نفسي حاد وشعور بالخسارة الشخصية . وربما غالباً ما يُعطي التغيير ، عاجلاً أم آجلاً ، شعوراً بالتححرر ورغبة في تحقيق أهداف جديدة.

في توسع المدينة ، تحدث عملية توزيع تُغربل وتُصنف وتُعيد توزيع الأفراد والجماعات حسب أماكن الإقامة والمهنة . عادةً ما يكون التمايز الناتج عن ذلك للمدينة الأمريكية العالمية إلى مناطق جميعها من نمط واحد ، مع تعديلات طفيفة مثيرة للاهتمام فقط (ينظر الشكل 2) . داخل منطقة الأعمال المركزية أو في شارع مجاور ، يقع "الجذع الرئيسي" لـ "الهوس بالعيش" ، وهو الريالتو المزدهم للرجل المهاجر المشرّد في الغرب الأوسط . في منطقة التدهور المحيطة بقطاع الأعمال المركزي ، توجد دائماً ما يسمى بـ "الأحياء الفقيرة" و "الأراضي السيئة" ، بمناطقها المغمورة بالفقر والتدهور والمرض ، عوالمهم السفلية من الجريمة والرديلة . داخل منطقة متدهورة ، تقع أحياء سكنية ، بمثابة مطهر "للأرواح الضائعة" . بالقرب منها ، يقع الحي اللاتيني ، حيث تلجأ الأرواح المبدعة والمتمردة . كما تكتظ الأحياء الفقيرة بمستعمرات المهاجرين - الحي اليهودي ، وصقلية الصغيرة ، والمدينة اليونانية ، والحي الصيني - التي تجمع بشكل ساحر بين تراث العالم القديم والنسخ الأمريكية المقتبسة . من هنا ، يبرز الحزام الأسود بحياته الحرة والفوضوية . منطقة التدهور ، وإن كانت في جوهرها منطقة اضمحلال ، وسكانها ثابتون أو متناقصون ، إلا أنها أيضاً منطقة تجدد ، كما تشهد على ذلك البعثة ، والمستوطنة ، ومستعمرة الفنانين ، والمراكز الراديكالية - جميعها مهووسة برؤية عالم جديد وأفضل .

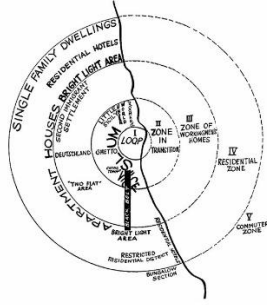


Figure 2: Urban areas.

المنطقة التالية يسكنها في الغالب عمال المصانع والمتاجر، لكنهم مهرة ومقتصدون . هذه منطقة توطين ثانية للمهاجرين ، عادةً من الجيل الثاني . إنها منطقة الهروب من الأحياء الفقيرة ، "دويتشلاند" لعائلة الغيتو الطموحة . فـ"دويتشلاند" (حرفياً "ألمانيا") هو الاسم الذي يُطلق ، بدافع الحسد والسخرية ، على تلك المنطقة الواقعة وراء الغيتو، حيث يبدو أن الجيران الناجحين يُقلدون معايير المعيشة اليهودية الألمانية . لكن سكان هذه المنطقة يتطلعون بدورهم إلى "أرض الميعاد" الواقعة وراءها ، إلى فنادقها السكنية ، ومنطقة الشقق السكنية ، و"حلقاتها الفرعية" ، ومناطق "أضوائها الساطعة" . هذا التمايز إلى تجمعات اقتصادية وثقافية طبيعية يُعطي المدينة شكلاً وطابعاً خاصاً . فالفصل العنصري يمنح المجموعة ، وبالتالي الأفراد الذين يُشكلونها ، مكاناً ودوراً في التنظيم الشامل لحياة المدينة . يحد الفصل العنصري من التطور في اتجاهات معينة ، ولكنه يُطلقه في اتجاهات أخرى . تميل هذه المناطق إلى إبراز سمات معينة ، وجذب وتطوير أفرادها ، وبالتالي زيادة تمايزها.

يُظهر تقسيم العمل في المدينة أيضاً الفوضى وإعادة التنظيم وتزايد التمايز. نادراً ما يحمل المهاجر من المجتمعات الريفية في أوروبا وأمريكا معه مهارات اقتصادية ذات قيمة كبيرة في حياتنا الصناعية أو التجارية أو المهنية . ومع ذلك ، فقد حدث انتقاء مهني مثير للاهتمام بناءً على الجنسية ، وهو أمر يمكن تفسيره أكثر بالمزاج العرقي أو الظروف أكثر من الخلفية الاقتصادية القديمة ، مثل رجال الشرطة الأيرلنديين ، ومحلات الآيس كريم اليونانية ، والمغاسل الصينية ، والحمالين الزنوج ، وعمال النظافة البلجيكيين ، إلخ . إن حقيقة أن مليون فرد (996,589) يعملون بأجر في شيكاغو أفادوا عن 509 مهنة ، وأن أكثر من 1000 رجل وامرأة في قائمة "من هو" التي قدمت 116 مهنة مختلفة ، تعطي فكرة عن كيفية قيام التمايز الدقيق للمهنة في المدينة "بتحليل وغربلة السكان ، وفصل وتصنيف العناصر المتنوعة" (كذا).

كما تقدم هذه الأرقام لمحة عن تعقيد الآلية الصناعية الحديثة وتعقيدها ، والفصل والعزل المعقدين للمجموعات الاقتصادية المتباينة . ويرتبط بهذا التقسيم الاقتصادي للعمل تقسيم مماثل إلى طبقات اجتماعية وإلى مجموعات ثقافية وترفيهية . من هذا التعدد للجماعات ، بأنماط حياتها المختلفة ، يجد الشخص عالمه الاجتماعي الملائم ، وما لا يمكن تحقيقه في حدود القرية الضيقة ، قد ينتقل ويعيش في عوالم متباعدة ، وربما متضاربة . قد يكون التفكك الشخصي مجرد فشل في مواءمة قواعد سلوك جماعتين متباعدتين . إذا كانت ظاهرتا التوسع والتغير في التركيب السكاني تشيران إلى أن درجة معتدلة من التفكك قد تُسهّل ، بل تُسهّل ، التنظيم الاجتماعي ، فإنها تشير أيضاً إلى أن التوسع الحضري السريع مصحوب بزيادات مفرطة في الأمراض والجريمة والفوضى والرديلة والجنون والانتحار، وهي مؤشرات تقريبية للتفكك الاجتماعي.

ولكن ما هي مؤشرات أسباب التفكك الاجتماعي في المدينة ، لا نتائجه ؟ لقد سبق اقتراح تجاوز الزيادة الفعلية في عدد السكان عن الزيادة الطبيعية كمعيار. تكمن أهمية هذه الزيادة في هجرة عشرات الآلاف

من الأشخاص سنويًا إلى مدن حضرية مثل نيويورك وشيكاغو. يُحدث غزوهم للمدينة موجةً عارمة تغمر أولاً مستعمرات المهاجرين ، وموانئ الدخول الأولى ، مُشردةً آلاف السكان الذين يفيضون إلى المنطقة التالية ، وهكذا دواليك حتى يُفرغ زخم الموجة قوته على آخر منطقة حضرية . ويتمثل الأثر الكلي في تسريع التوسع ، وتسريع الصناعة ، وتسريع عملية "التخلص من المباني القديمة" في منطقة التدهور (II). وتُصبح هذه التحركات الداخلية للسكان أكثر أهميةً للدراسة . ما هي الحركة التي تجري في المدينة ، وكيف يُمكن قياسها ؟ من الأسهل، بالطبع ، تصنيف الحركة داخل المدينة من قياسها . فهناك الحركة من مسكن إلى مسكن ، والتغيير من حيث المهنة ، ودوران العمالة ، والحركة من وإلى العمل ، والحركة للترفيه والمغامرة . وهذا يقودنا إلى السؤال الآتي : ما هو الجانب المهم للحركة لدراسة التغيرات في حياة المدينة ؟ الإجابة عن هذا السؤال تقودنا مباشرةً إلى التمييز المهم بين الحركة والتنقل.

التنقل نبض المجتمع

الحركة ، في حد ذاتها ، ليست دليلاً على التغيير أو النمو . في الواقع ، قد تكون الحركة نظامًا ثابتًا وغير متغير للحركة ، مصممًا للتحكم في وضع ثابت ، كما هو الحال في الحركة الروتينية . الحركة المهمة للنمو تعني تغييرًا في الحركة استجابةً لمحفز أو موقف جديد . يُطلق على هذا النوع من التغيير في الحركة اسم التنقل . تجد الحركة ذات الطابع الروتيني تعبيرها النموذجي في العمل . يُعبر عن تغيير الحركة ، أو التنقل ، بشكل مميز في المغامرة . أصبحت المدينة الكبرى ، بـ"أصوائها الساطعة" ، ومتاجرها من التحف والصفقات ، وقصورها الترفيهية ، وعالمها السفلي المليء بالرديلة والجريمة ، ومخاطرها على الأرواح والممتلكات من الحوادث والسرقة والقتل ، منطقةً تشهد أشد درجات المغامرة والخطر والإثارة والتشويق.

من البديهي أن الحركة تنطوي على التغيير، والتجربة الجديدة ، والتحفيز . يُحفز التحفيز استجابة الشخص للأشياء في بيئته التي تُعبر عن رغباته . بالنسبة للشخص ، كما بالنسبة للكائن الحي ، يُعد التحفيز أساسيًا للنمو. تكون الاستجابة للتحفيز سليمة ما دامت رد فعل متكامل ومتربط للشخصية بأكملها . عندما يكون رد الفعل مجزأً ، أي منفصلاً عن تنظيم الشخصية وغير متحكم به ، فإنه يميل إلى أن يصبح مشوشاً أو مرضياً . لهذا السبب ، فإن التحفيز من أجل التحفيز، كما في السعي الدؤوب وراء المتعة ، يشترك في طبيعة الرذيلة . إن مرونة الحياة في المدينة ، مع ازدياد عدد وشدة المحفزات ، تميل حتمًا إلى إرباك الشخص وإحباطه . فإن عنصرًا أساسيًا في الأخلاق والأخلاق الشخصية هو الاتساق ، اتساق من النوع الطبيعي في الضبط الاجتماعي للجماعة الأساسية . وحيث يكون الضبط الاجتماعي في أوجه ، وحيث تنهار الضوابط الأساسية نتيجة لذلك تمامًا ، كما في منطقة التدهور في المدينة الحديثة ، تنشأ مناطق من التدهور الأخلاقي ، والانحلال الأخلاقي ، والرذيلة .

في دراستنا للمدينة ، نجد أن مناطق الاتساق هي أيضًا المناطق التي يوجد فيها جنوح الأحداث ، وعصابات الفتيان ، والجريمة ، والفقر ، وهجر الزوجة ، والطلاق ، والرضع المهجورين ، والرذيلة . توضح هذه المواقف الملموسة لماذا يُعد الاتساق الاجتماعي ربما أفضل مؤشر على حالة الأيض في المدينة . يمكن عد التنقل ، بأكثر من مجرد معنى خيالي ، بمثابة "نبض المجتمع" . فهو، كنَبض جسم الإنسان ، عملية تعكس وتدل على جميع التغيرات التي تحدث في المجتمع ، وقابلة للتحليل إلى عناصر يمكن التعبير عنها عدديًا . يمكن تصنيف العناصر التي تدخل في التنقل تحت عناوين رئيسيين : (1) حالة تغير الشخص، و(2) عدد ونوع الاتصالات أو المحفزات في بيئته . يختلف تغير سكان المدن باختلاف التركيبة العمرية والجنسية ،

ودرجة انفصال الشخص عن أسرته وعن المجموعات الأخرى . يمكن التعبير عن جميع هذه العوامل عددياً . ويمكن قياس المحفزات الجديدة التي يستجيب لها السكان من حيث تغير الحركة أو زيادة الاتصالات . قد تقيس إحصاءات حركة سكان المناطق الحضرية الروتين فقط ، ولكن الزيادة بنسبة أعلى من زيادة السكان تقيس التنقل . في عام 1860 ، نقلت عربات الخيول في مدينة نيويورك حوالي 50 مليون راكب ؛ وفي عام 1890 ، نقلت عربات الترام (وعدد قليل من عربات الخيول المتبقية) حوالي 500 مليون راكب ؛ وفي عام 1921 ، نقلت خطوط الضواحي المرتفعة ، ومترو الأنفاق ، والسطحية ، والكهربائية والبخارية ما مجموعه أكثر من 2.5 مليون راكب . وفي شيكاغو ، بلغ إجمالي عدد الرحلات السنوية للفرد على الخطوط السطحية والمرتفعة 164 رحلة في عام 1890 ؛ و215 رحلة في عام 1900 ؛ و320 رحلة في عام 1910 ؛ و338 في عام 1921 . بالإضافة إلى ذلك ، تضاعف عدد ركاب خطوط الضواحي البخارية والكهربائية للفرد تقريباً بين عامي 1916 (23) و1921 (41)، ولا ينبغي إغفال الاستخدام المتزايد للسيارات . على سبيل المثال ، ارتفع عدد السيارات المتنقلة في إلينوي من 131,140 في عام 1915 إلى 833,920 في عام 1923 .

يمكن قياس التنقل ليس فقط من خلال هذه التغيرات في الحركة ، ولكن أيضاً من خلال زيادة الاتصالات . في حين أن زيادة عدد سكان شيكاغو في الفترة 1912-1922 ، كانت نسبة الرسائل المرسلة إلى سكان شيكاغو أقل من 25% (23.6%) ، بينما تضاعفت نسبة الرسائل المرسلة إلى سكان شيكاغو (49.6%) (من 693,048,196 إلى 1,038,007,854) . في عام 1912 ، كان لدى نيويورك 8.8 هاتف؛ وفي عام 1922 ، بلغ 16.9 هاتف لكل 100 نسمة . وفي بوسطن ، في عام 1912 ، بلغ 10.1 هاتف؛ وبعد عشر سنوات ، بلغ 19.5 هاتف لكل 100 نسمة . وفي العقد نفسه ، ارتفعت الأرقام في شيكاغو من 12.3 إلى 21.6 هاتف لكل 100 نسمة . ولكن ربما يكون ازدياد استخدام الهاتف أكثر أهمية من ازدياد عدد الهواتف . ارتفع عدد المكالمات الهاتفية في شيكاغو من 606,131,928 مكالمات عام 1914 إلى 944,010,586 مكالمات عام 1922 ، بزيادة قدرها 55.7% ، بينما لم يزد عدد السكان إلا بنسبة 13.4% .

وتعدّ قيم الأراضي ، نظراً لانعكاسها على الحركة ، أحد أكثر مؤشرات التنقل حساسية . وتقع أعلى قيم للأراضي في شيكاغو عند نقطة أعلى حركة في المدينة ، عند زاوية شارعي ستيت وماديسون ، في منطقة لوب . وأظهر إحصاء حركة المرور أنه في فترة الذروة ، كان 31,000 شخص في الساعة ، أو 210,000 رجل وامرأة في ستة عشر ساعة ونصف ، يمرون بالزاوية الجنوبية الغربية . لأكثر من عشر سنوات ، ظلت قيم الأراضي في منطقة "الحلقة" ثابتة ، لكنها في الوقت نفسه تضاعفت ، وتضاعفت أربع مرات ، بل وتضاعفت ست مرات في الزوايا الاستراتيجية لـ "الحلقات الفرعية" ، وهو مؤشر دقيق للتغيرات التي حدثت .

ويبدو أن تحقيقنا حتى الآن تشير إلى أن الاختلافات في قيم الأراضي ، وخاصة تلك المرتبطة باختلافات الإيجارات ، تُقدّم ربما أفضل مقياس للتنقل ، وبالتالي لجميع التغيرات التي تحدث في توسع المدينة ونموها . وبشكل عام ، حاولت عرض وجهة النظر وأساليب البحث التي يستخدمها قسم علم الاجتماع في دراساته حول نمو المدينة ، ألا وهي وصف التوسع الحضري من حيث الامتداد والتعاقب والتركيز ؛ وتحديد كيفية تأثير التوسع على عملية الأيض عندما يتجاوز الفوضى التنظيم ؛ وأخيراً ، تعريف الحراك واقتراحه كمقياس للتوسع والأيض ، قابل للصياغة الكمية الدقيقة ، بحيث يمكن عده حرفياً تقريباً نبض المجتمع . بطريقة ما ، يمكن أن يكون هذا البيان بمثابة مقدمة لأي من خمسة أو ستة مشاريع بحثية جارية في القسم . ومع ذلك ، فإن المشروع الذي أشارك فيه بشكل مباشر هو محاولة لتطبيق أساليب البحث هذه على مقطع

عرضي من المدينة - لوضع هذه المنطقة ، إن جاز التعبير، تحت المجهر، وبالتالي دراسة العمليات التي وُصفت هنا على نطاق واسع بمزيد من التفصيل وبتحكم ودقة أكبر.

ولهذا الغرض ، تم اختيار المجتمع اليهودي في الجانب الغربي . يشمل هذا المجتمع ما يسمى بـ "الغيتو" ، أو منطقة الاستيطان الأول ، ولونديل ، أو ما يسمى بـ "دويتشلاند" ، أو منطقة الاستيطان الثاني . تتمتع هذه المنطقة بمزايا واضحة لهذه الدراسة ، من منظور التوسع ، والتمثيل الغذائي ، والتنقل . فهي تُجسّد الميل إلى التوسع شعاعياً من مركز الأعمال في المدينة . وهي الآن مجموعة متجانسة ثقافياً نسبياً . ولونديل نفسها منطقة تشهد تغيرات مستمرة ، حيث ما يزال تدفق المهاجرين من الحي اليهودي ، ويستمر في الخروج إلى مناطق أكثر جاذبية في المنطقة السكنية . في هذه المنطقة أيضاً ، من الممكن أيضاً دراسة كيفية مواجهة النتيجة المتوقعة لهذا المعدل المرتفع من التنقل في الفوضى الاجتماعية والشخصية إلى حد كبير من خلال التنظيم المجتمعي الفعال للمجتمع اليهودي.